حكاية فنجان قهوة ..

هند عبد العزيز - مصر

بمذاق البن ونكهة شرقية مميزة نبدأ حكاية فنجان قهوة لذيذة ومرة في الوقت نفسه.. ذلك المشروب الفريد الذي انتقل من اليمن إلى كافة أنحاء الشرق ومن الشرق انتقل إلى أوروبا. فالقاصي والداني يعرف القهوة المشروب والمكان الذي استمد اسمه من هذا المنتج. لكن هل خُيِّل إليك عزيزي القارئ وأنت ترتشف فنجانك الصباحي من القهوة أنك تشرب منكرًا! أو تفعل إثماً سوف تحاسب عليه! وعليك أن تتوب عن ذنب إدمان فنجان القهوة صباحاً؟ أنت اليوم تشرب قهوتك بنكهات مختلفة، وتقارن بين البن اليمني والبن البرازيلي، وتستمتع بشعور اليقظة والتركيز الذي يمنحه لك ذلك المشروب السحري؛ دون أن تعرف الكثير عنه..

بعض الروايات التي تناقلها المؤرخون حول بداية زراعة شجر البن وصناعة مشروب من القهوة ترجعه إلى بلاد الحبشة (إثيوبيا). ثم بدأت بالانتشار في أمريكا اللاتينية، وكان لليمن دور أساسي في انتقال ثقافة القهوة إلى الهند، واشتهرت القهوة التركية في أوروبا، فيما تعد البرازيل واليمن وكينيا من أهم منتجي القهوة على المستوى العالمي.

وكان الشيخ الإمام جمال الدين الذبحاني قد كُلف بالذهاب إلى عدن للنظر في بعض الفتاوى وتصحيحها، وسافر إلى بلاد الحبشة وأقام بها، ووجد هناك أناساً يشربون القهوة ثم عاد إلى عدن وأصابه بعض المرض فتذكر القهوة وشرب منها، ولاحظ أنها تذهب التعب والاسترخاء وتقوي الجسم وتبعث فيه النشاط.

ومن هنا عرف أهل اليمن القهوة وانتشرت زراعة شجرة البن. ورواية أخرى عن دخول القهوة إلى اليمن يرجع الفضل فيها إلى علي بن عمر الشاذلي شيخ موخا (ميناء باليمن). وقد ضل اسم هذا الميناء – موخا – أو (المخا) مرادفاً للقهوة لمدة ألف عام، ومنه جاءت (موكا) أحد أصناف القهوة الشهيرة في الغرب؛ ونظراً للدور الذي لعبه ميناء موخا كمركز هام للتبادل التجاري ولحركة سفن البن من اليمن إلى مصر وأوروبا.

انتقل مشروب القهوة من اليمن إلى مكة ومصر – كانت مكة آنذاك تحت الحكم المملوكي – إلا أن المشروب الوليد آثار حوله ضجة هائلة. وتكشف (واقعة مكة) سنة 917 هـ/ 1511 تكشف أن القهوة كانت قد وصلت الحجاز من اليمن قبل سنوات على الأقل حتى انتشرت وارتبطت بها مظاهر معينة، كما هو واضح من المحضر الذي حرر الواقعة وأرسل إلى القاهرة تلك السنة، وهو أقدم ما لدينا من النصوص التي توفر بعض المعطيات المتعلقة بوصول انتشار القهوة.

وكان السلطان قنصوه الغوري (1500-1516) قد عين خاير بك ناظراً على الحسبة في مكة، حيث رأى في ليلة 22 ربيع الأول 917 هـ/ 1511 خلال طريقه من الكعبة إلى بيته جماعة تحتفل بالمولد النبوي ووجد بينهم شيئاً يتعاطونه على هيئة الشربة التي يتناولها المسكر، ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم، فسأل عن الشراب المذكور فقيل هذا شراب اتخذ في هذا الزمان ويسمى القهوة حيث يطبخ من قشر حب يأتي من بلاد اليمن يقال له البن، وإن هذا الشراب قد فشا أمره بمكة وكثر وصار يباع في مكة على هيئة الخمارات ويجتمع عليه بعض الناس بالرهن وغيره مما هو ممنوع في الشريعة المطهرة. ويبدو أن كل هذه الأمور المصاحبة لانتشار المشروب الجديد، ويبدو أن السلوكيات الجديدة قد أقلقت ناظر الحسبة (الوصي على أخلاق المجتمع) ولذلك فقد جمع صباح اليوم التالي قضاة الإسلام وعلماء الدين لمناقشة أمر القهوة. ويبدو من المحضر المذكور أن الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي (مفتي مكة آنذاك) كان من المدافعين عن القهوة خلال ذلك الاجتماع مما عرضه إلى مصاعب بعد أن كفره بعض الحاضرين، وقد وصل الأمر إلى أن يرسل مع المحضر المذكور إلى العاصمة القاهرة سؤالاً يشير إليه لاستصدار فتوى ضد القهوة.

وكان مرسوم السلطان الغوري والذي نشر إثر الواقعة لم يستجب لما ورد في السؤال المتحيز ضد مفتي مكة، وذلك لقيامه بالتمييز بين قبول القهوة ومنع شرابها من التظاهر بشربها والدوران في الأسواق، ولعل هذه الروح التوفيقية تعكس الجو العام في القاهرة وبالتحديد حول اختلاف العلماء بين مؤيد ومعارض للقهوة وما أسفر عنه من تجاذب ديني اجتماعي سياسي غير مألوف.

ففي هذا الإطار يبرز أولاً شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (1420-1520) الذي أصدر فتوى بمنع الناس من شربها، إلا أن المولعين بشربها راجعوه في ذلك مما دعاه إلى اختبار شاربي القهوة، حيث لم يرى منهم من الكلام ما هو فاحش بل وجد منهم انبساطاً قليلاً ولذلك فقد صنف في حلها مصنفاً قاطعاً بالحل. وفي المقابل وجد في محيط الأنصاري من عارض القهوة أمثال الشيخ ابن عبد الحق السنباطي الذي أخذ يقود حملة في مجالسه بالأزهر ضد القهوة وبيوتاتها من خلال الدعوة لحرقها، فنتج عن ذلك فتنة كبيرة. ولتجنب هذه الفتنة أحيل الأمر إلى قاضي القضاة محمد بن إلياس الحنفي الذي أحضر جماعة ممن يشربون القهوة فأمر بطبخها وسقى منها بحضرته وجلس يتحدث معهم معظم النهار فلم ير منهم شيئاً منكراً فأقرها في حينها. ويبدو أن هذه الفتوى قد شجعت أنصار القهوة، وهذا ما يتضح من خلال فترة خسرف باشا الذي تولى حكم مصر (1534-1536) والذي عرف زمانه بتفشي القهوة والمقاهي.

وكان وصول القهوة إلى جنوب بلاد الشام من الحجاز واليمن توافق مع التغير السياسي الذي حصل في المنطقة (سقوط الدولة المملوكية وبروز الدولة العثمانية). كما أن معظم الروايات المختلفة تربط ذلك بعدة أشخاص من دراويش الطرق الصوفية وبالتحديد الطريقة الشاذلية حتى أصبحت علاقتهم بالقهوة وطيدة إلى حد أن اسم القهوة أو شربها أصبح يرتبط بشكل وثيق بالشاذلي نفسه. وهكذا نجد مثلاً أن القهوة في الجزائر تسمى (شاذلية) بينما نجد في ضواحي دمشق إلى مطلع القرن العشرين أن صاحب البيت حين يأخذ إبريق القهوة من على النار يسكب الفنجان الأول على الأرض لأنها (حصة الشاذلي). بيد أن استقرار القهوة في المحيط الفقهي الشامي لم تكن من السهولة، إذ أن الأمر كان يتعلق بالقاضي الموجود في دمشق والذي كان يتغير من حين لآخر ويتغير معه الموقف برمته. وهكذا بعد عدة سنوات عين الشيخ الحسيني قاضياً واتفق مع بعض العلماء

المعروفين على تحريم القهوة ولم يكتف بهذا بل عرض الأمر على السلطان سليمان القانوني فورد أمر بإبطالها سنة 1546. لكن سرعان ما اختلف الأمر بعد وفاة السلطان من حيث عودة الناس إلى شرب القهوة ثانية في عهد والي دمشق لالا مصطفى (1563-1568). ومما ساهم في ترجيح كفة أنصار القهوة أن العلماء المناصرين لها أخذوا يرتادون بيوتها، ويتمتعون بشربها هناك ويشرعون في الكتابة دلالة على ما أصبحت تعني بالنسبة لهم. كما أصبحت بيوت القهوة تجذب المزيد من الرواد لاعتبارها أماكن للتسلية والمتعة من خلال الاستماع إلى المغنيين المعتبرين في عصرهم. وبالاستناد إلى ما يذكره المؤرخون العثمانيون في هذا المجال، فقد عرفت إسطنبول القهوة والمقاهي سنة 1554، حيث قام شخص من دمشق وآخر من حلب بفتح مقهيين في محلة تحت القلعة، وأخذ يتردد على المقاهي الأئمة وطلاب المدارس الدينية، حتى تقاعس الكثيرون منهم عن الذهاب إلى الجوامع مما أثار سخط بعض علماء الدين الذين بادروا إلى إصدار الفتاوى التي تحرم شرب القهوة لتبقى كذلك حتى سنة 1591.

ولعل شهرة القهوة وانتشارها في بقية الأمصار الإسلامية حدث عندما ظهرت القهوة لأول مرة في مصر في مطلع القرن العاشر الهجري. لقد جلبها اليمانيون إلى رواقهم في الجامع الأزهر، وكان طلاب اليمن وما جاورهم في الرواق اليمني يسهرون للدراسة وترديد الأذكار وينشدون المدائح النبوية، ويستعينون على مغالبة النعاس بشرب القهوة. ولقيت القهوة معارضة علماء مصر، وأصدر بعضهم فتاوى تحرمها، ومع هذا بقيت معارضة مصر أخف وطأة من معارضة الحجاز.

وتعود جذور الكلمة (قهوة) تعود إلى مملكة (كافا) في إثيوبيا، حيثُ زرعت النبتة للمرة الأولى، وفي مرحلة لاحقة انتقلت الكلمة إلى اللغة التركية، وكانت تلفظ (كافي) Kahve، ثم دخلت إلى اللغة الإنكليزية عام 1598، عن طريق اللغة الألمانية بلفظة (كوفي)، وعندما بدأ العرب بتوسيع نطاق تجارتهم، استوردوا حبوب (الموكا) من إثيوبيا إلى اليمن، ومنها إلى الهند وتركيا وأوروبا، وفي اليمن أيضاً بدأ تحميص البن للمرة الأولى، وفق الطريقة المعتمدة إلى اليوم.

دخلت القهوة إلى الهند، للمرة الأولى، عن طريق (بابا بودان)، حيثُ مر خلال عودته من الحج على اليمن، وعندما ذاق القهوة هناك، أخذ 4 عناقيد من هذه النبتة وزرعها في تلال (شيكاماغالورو) التي عرفت لاحقًا بـ(تلال بابا بودان) نسبة إليه. وتنتج الهند نوعين من القهوة؛ القهوة الجافة التي يطلق عليها اسم (شيري)، والقهوة الرطبة التي يطلق عليها اسم (بلانتيشون أرابيكا) و(بلانتيشون روبوستا)، أما قهوة (المونسوند) فتتميز بنكهتها اللاذعة.

أنشئ أول مكان لتقديم القهوة للزبائن في إسطنبول عام 1554، ومن تركيا انتقلت القهوة إلى إيطاليا، وساهمت حركة التجارة بين البندقية وإفريقيا في إدخال أنواع من القهوة، وفي البداية كان لا يقدر على شراء المشروب سوى الميسورين، نظراً لارتفاع سعره، وتم إنشاء أول مقهى في البندقية، بل في أوروبا، عام 1645، وهكذا تعرف الأوروبيون على القهوة للمرة الأولى.

جمع البريطانيون بين لذة ارتشاف القهوة وعمليتي استيرادها وتصديرها، وفتح أول مقهى أبوابه في أكسفورد عام 1650، ثم في لندن عام 1652، ولاقت القهوة اهتماماً لافتاً من قبل البريطانيين، الذين أنشؤوا متحف (براما) ليعرض تاريخ القهوة منذ دخولها إلى بريطانيا، وأماكن زراعتها وطرق تصنيعها وتحضيرها، ويضم المتحف جناحاً لمشروب الشاي.

وفي البرازيل، نقل (غابريال دو كليو) حبوب القهوة إلى جزر (المارتينيك) عام 1720، ومنها إلى (المكسيك) و(هاييتي)، لتبدأ شهرة القهوة البرازيلية والمكسيكية، ثم انتقلت القهوة من البرازيل إلى (كينيا) و(تنزانيا) المجاورتين لإثيوبيا، وبذلك تنهي القهوة رحلتها عبر القارات، بعد حوالي 600 عام من التجوال. في حين كان مسموحاً للمرأة في ألمانيا أن ترتاد الأماكن المخصصة لارتشاف القهوة، كان ممنوعاً على نساء بريطانيا ارتياد المقاهي، والغريب أن نساء لندن وقعن على عريضة مناهضة للقهوة عام 1674، احتجاجاً على عدم تواجد الرجال في المنازل وقضائهم أوقاتاً طويلة في المقاهي، ورأت النساء في ذلك تمييزاً واضحاً بين الجنسين.

وترتبط القهوة العربية تعتبر رمزاً من رموز الكرم والتفاخر والضيافة؛ فتقديمها للزائر إشارة تكريم، وقد حظيت بالاحترام عند معدِّيها وشاربيها على حدٍّ سواء، إضافة إلى الدلالات التي ترافق عملية وطرق تقديمها للآخرين في مختلف المناسبات الاجتماعية من استقبال وأفراح وأتراح وجاهات وصلح وغيرها من المناسبات.

وتشكلت ثقافة القهوة والمقاهي التي تعود إلى القرن الرابع عشر في تركيا. حيث كانت المقاهي في أوروبا الغربية وشرق البحر الأبيض المتوسط مراكز اجتماعية تقليدية، وكذلك المراكز الفنية والفكرية. في أواخر القرنين السابع والثامن عشر أصبحت المقاهي في لندن أماكن شعبية للقاء الفنانين والكتاب، والشخصيات الاجتماعية وكانت أيضاً مركزاً لنشاط السياسي والتجاري.

في الولايات المتحدة بصفة خاصة، كثيراً ما يستخدم هذا المصطلح للدلالة على مئات المقاهي في المنطقة الحضرية سياتل، وانتشار الامتيازات للشركات مثل ستاربكس أنحاء الولايات المتحدة. نمط ثقافة القهوة يختلف حسب البلد، حيث أصبحت جوانب أخرى من ثقافة القهوة تشمل وجود حرية الوصول إلى شبكة الإنترنت اللاسلكية للزبائن، والكثير منهم قام بأعمال تجارية لساعات طويلة بشكل منتظم. وفي بلاد أخرى تجدهم يلعبون النرد أو ورق الشدة أثناء تواجدهم في المقاهي، وبعض المقاهي تقوم بترويج الكتب لمرتاديها للقراءة والاطلاع في جوٍ مليء برائحة البن.

لمشاهدة فيلم وثائقي عن تاريخ البن والقهوة:

(4-1)

(4-2)

(4-3)

(4-4)